المصطلح اللساني النقدي
بين واقع العلم وهواجس توحيد المصطلح

محمد النويري

كانت نيتي التعليق على تعريب كتاب جان كوهين : « بنية اللغة الشعرية »[1] الذي أنجزه محمد الولي ومحمد العمري من المغرب الشقيق ، استجابة لدعوة كريمة تلقيتها من الدكتور عبدالفتاح أبومدين للمشاركة في العدد الخاص الذي عقدته مجلة « علامات » للمصطلح النقدي . وفي الأثناء طالعت مقالاً أصدرته مجلة « الوحدة » الصادرة بالمغرب العدد ٩٧ ، أكتوبر ١٩٩٢ ، ربيع الثاني ١٤١٣هـ للسيد عبدالنبي اصطيف بعنان « نظرة في مصطلح النقد العربي الحديث والمؤثرات الاجنبية فيه» واللافت في هذا المقال ان صاحبه جمع بين أمرين يجتمعان في المادة . فهو من ناحية يتحدث عن القضية حديث من لم يكابد مشاقها ويتناولها تناولا سطحياً يبعد بها كثيراً عن حقيقتها . وهو من ناحية أخرى يغض من اعمال غيره غضاً مؤسفاً ويجرحها بغير وجه حق ، تجريحاً لا يمكن السكوت عنه . الأمر الذي حدا بي أن أقف عند القضية لأقلبها إلى بعض وجوهها التاريخية والنظرية عسى أن نخرج بها من السطحية التى يلقيها فيها هذا المنحى في التناول منحى أعد هذا المقال مثالا له . وأرجأت المقال الذي كنت عقدت النية على انجازه الى فرصة لاحقة . وعسي أن أبين أن طرح صاحبنا مسألة توحيد المصطلح النقدي هذا الطرح الذي بني على أساسه أحكاماً على النقد العربي سوداء قاتمة[2] كان طرحا في غير محله . حيث إنه لا المصطلح النقدي من ناحية ولا المصطلح اللساني من ناحية أخرى (والكثير من المصطلحات النقدية هي في الأصل مصطلحات لسانية) كان فى أى وقت من الأوقات موحدا حتى فى البيئة الثقافية التى ظهرت فيها هذه العلوم الانسانية ، وعسى ان ندرك ان المصطلح مهما كان المجال العلمي الذي ينتسب اليه لا يمكن

أن يكون صخرة من جلمود لا يتأثر بالمجالات العلمية التي تحيط به . ذلك ان العلوم والعلوم الانسانية بالذات يؤثر بعضها في بعض ويتأثر بعضها ببعض ويستعير بعضها مصطلحات البعض . يريد الأستاذ صاحب المقال ان يكون المصطلح واحداً موحداً ، قلعة حصينة تمنع مفاهيم العلوم الأخرى من أن تقترب منها وله في ذلك آراء إن هي إلا أماني إذ ما أبعدها عن واقع العلوم . فما رأيه لو تأمل أصول عدد كبير من مصطلحات المعجم اللساني وهو المعجم الذي أطنب في الحديث عنه . فإنه متبين ان شاء الله أن عدداً لا يستهان به منها مستمد من علم النفس وتأثر فرديناند دي سوسير (١٨٥٧ ـ ١٩١٣) ، أب اللسانيات المعاصرة بالـ Cestalttheorie لا يخفى على أهل العلم(ع ٣) ، والعارفون يعلمون أن ليونار بلومفيلد أب البنيوية التوزيعية (١٨٨٧ ـ ١٩٤٩) لم يزد على أن جعل من السلوكية behiviorisme منهجاً عملياً في البحث اللساني فتبني طرائقها وعدداً كبيراً من مصطلحاتها . وقل قريباً من هذا في تشومسكي (١٩٢٨ . . .) وتأثره بالرياضيات والفلسفة . كذلك فإن اللسانيات استعارت مصطلحات كثيرة من علم الأحياء والفيزياء والرياضيات والمنطق والاعلامية والطب بمختلف اختصاصاته .

ومن ناحية أخرى فإن اللسانيات تحولت مبكراً إلى علم رائد يعير غيره من العلوم الانسانية مصطلحاته ووسائل اجرائه ويكفي أن نذكر في هذا السياق مجرد تذكير بأعمال أصبحت معروفة لدى الباحثين مألوفة . من أبرزها أعمال كلود لفي شتراوس C. Levi strauss : « الانتروبولوجية البنيوية »(٤) Antropolo-gie Structural.

ورولان بارت R. Barthes : بداية من كتابه « أساطير » Mythologics (5) إلى أعماله اللاحقة .

وميشال فوكو Michel Foucault : « الكلمات والأشياء »(٦) وغير هؤلاء كثيرون .

ذلك لنعلم أن لا حدود بين العلوم وأن لا ضير في أن يستعير الواحد منها مصطلحات الآخر .

وإذا كان عدد من العلماء الأجلاء في سائر أنحاء البلاد العربية يبذلون في إطار تعريفهم بمختلف العلوم ونقل مصطلحاتها الى العربية جهوداً نقدرها حق قدرها وإذا كانت اللسانيات منها بالذات وجدت لدي عدد من الباحثين العرب اهتماماً متزايدا فإن صاحبنا يكتفي بالحديث عن القضية حديث الجالس على الربوة . لا بل يجرح ويستنقص أعمال غيره وهو ناعم البال قرير العين .

فيحكم على جملة أعمال بأنها « لاتؤدي الفائدة المرجوة منها » . ثم يتناولها عملا عملا فيكيل لها ما شاءت له قريحته « العلمية » من أحكام معيارية . فإذا بأحد خيره ما عرفت الساحة العلمية « مبتديء » « لم يستوعب ما يكتب عنه « واذا بعمله المتعلق بالمصطلح النقدي « نسخ ومسخ » (كذا) لو كان للسيد الكريم شيء من رصانة الباحث وحصافته لتريث طويلا قبل ان يقول في اعمال غيره بغير علم ولوزن عبارته زنة تكشف له عن فداحة الخطأ الذي وقع فيه باتهامه شيخاً كان يحصل له شرف كبير لو تيسر له أن كان أحد تلامذته ولكن لا يسعني إلا أن أقول مع القائل :

هـــــــل يضر البحـــــــــر أمسى زاخـــــــــراً
أن ري فيـــــــــه غـلام بحجـــــــــــر

ولنتجاوز هذا المقال !

إن المصطلح اللساني يعاني أزمة . هذا لا شك فيه ، ولكنها أزمة غربية المنابت والأسباب والعوارض قبل ان تكون أزمة في الفكر اللساني العربي استمد بعضهم صفاته لها من معجم الامراض فإذا هي « سرطان »[٧] وما يشبه السرطان من الاسقام وأسباب الأزمة عديدة منها ما يتصل بطبيعة البحث العلمي بإطلاق ومنها ما يتصل بخصوصية الدرس اللساني في نشأته الأولى أولا ثم في الصيرورة التى سلكها العلم في مرحلة ثانية . ومنها ما يتعلق بسلوك الباحث وأخلاقياته .

أما وضع المصالح عندنا فهو لا يكاد يختلف عنه في الثقافة الغربية . مع خصوصيات لعلنا نقف عندها في مرحلة لاحقه من هذا العمل .

١ ـ طبيعة البحث العلمي وتعدد المصطلح

ارتقت اللسانيات الى مرتبة العلم لانها سلكت منهجيته ملاحظة وتصنيفا للظواهر التي تقبل الملاحظة . والعلم بحث واستقصاء لا يعرفان الاستقرار . ذلك انه تساؤل أبدي وحيرة لا تقف عند حد . إذ المسلمات النهائية لا مكان لها في مجال البحث العلمي . إذ ما أن يصل الباحث الى درجة في البحث حتى تتراءى له في العمل تخوم جديدة تغريه بمزيد البذل . من ثم كانت الحقائق العلمية التي تبدو في مرحلة من مراحل الاختبار قوية متماسكة متهيئة لان تصبح جزءا من ماضي العلم كما أصبحت حقائق علمية عديدة عناصر من تاريخ العلوم . من ثم كانت الصياغة العلمية الحق هي تلك التي لاتكون جازمة ، قاطعة ، وإنما هي صياغة تحتمل الدحض كما تحتمل الاثبات . يقول كارل بوبر وهو أحد المناطقة المعارصرين :

« إن ما يسم النظرية العلمية ليس فقط احتمالها الصواب وإنما أيضاً احتمالها الخطأ» فبنية الصياغة فيها تهيئها لأحد الاحتمالين بحسب ما يكشف عنه البحث ويهدي اليه الدرس . من ثم كان التغيير والتعديل والتنقيح من أبرز السمات التي تميز النظريات العلمية . وبسبب من هذا أمكن لها أن تتقدم وتتطور مكتشفة الجديد ومستحدثه الطريف الذي لم يسبق اليه . وهل يتطور العلم دون أن تتطور مصطلحاته ؟ ذلك لا يكون لان منزلة المصطلح من النظرية العلمية هي منزلة القطر من الدائرة . ولا يمكن لتلك أن تتطور بمعزل عن هذا . يقول أنطوان مايي Antoine Meillet (1866 -1936) وهو لساني فرنسي من أبرز تلاميذ فردينان دي سوسير : « باعتبار أن النظريات التي لها دور ثبيت المفاهيم محكومة بالتطور فإنك توشك بحكم التقدم العلمي أن تري النظريات وقد حملت في حطامها المصطلحات نفسها »[٨] .

١١ ـ تعدد المصطلح وجه من وجوه تطور العلم

إن منزلة المصطلح من العلم هي منزلة الجهاز العصبي من الكائن الحي عليه يقوم وجوده وبه يتيسر بقاؤه إذ ان المصطلح تراكم مقولي يكتنز وحده نظريات العلم وأطروحاته . فهل العلم في نهاية الأمر إلا « مصطلحات أحسن

إنجازها » كما يقول جول ماروزو[٩] من ثم كان وضع المصطلح مرتبطا الى حد بعيد بوضع العلم . فلا نتنظر أن يكون المصطلح ناضجاً والحال أن الموضوع الذي يفصح عنه مازال متردداً مضطرباً ولا نتوقع أن يكون صارماً في ضبطه والحال أن المادة التى يترجم عنها مازالت تقتضي الدرس والضبط لذلك لم يكن بدعاً أن يساير المصطلح تقدم البحث العلمي فينضج كلما نضج وتتضح أبعاده كلما أضيئت قضايا العلم واتضحت أبعادها .

لذلك لم يكن غريباً أن يتخلي العلم عن مصطلحات كان يأخذ بها الى أخري مستحدثة بما أنه يتخلي عن نظريات كان يقول بها الى أخرى مستحدثة . وليس عجباً أن يعدل الباحث من بعض المفاهيم التي تقوم عليها نظريته فيعدل مصطلحاته وقد يتخلي عن بعضها بشكل نهائي بما أنه قد يتخلى عن بعض نظريته بشكل نهائي . هذا في العلوم الصحيحة وفي أمور قد تتصل بتشريح القلب أو جراحة المخ . دون أن يصل الأمر في أي الاحوال الى الى حدود الفوضي التي تعطل التواصل بين العلماء . أو تخل بمنظومة العلم . هي تلك قاعدة العلم وطبيعته : بحث متواصل واستحداث دائب . وانتظام متجدد واصطلاح يعقب اصطلاحا .

فأين وضع المصطلح اللساني من هذا كله ؟

١١١ ـ وضع المصطلح اللساني في البيئة الثقافية الغربية

لم يكن المصطلح اللساني في آي مرحلة من مراحل العلم على ما يظن بعض الناس من « الوحدة » والاستقرار لأسباب منها ما يتصل بطبيعة البحث العلمى كتلك التى كنا نشير اليها ومنها ما يتصل بخصوصيات البحث اللساني . ومسألة تضخم المصطلح اللساني مسألة قديمة أثارها جول ماروزو في مقدمة معجمه الذي أصدره بباريس سنة ١٩٤١ والعلم مازال يافعا . فطرح إشكالية المصطلح اللساني طرحاً ينبىء بالأزمة التي سيشهدها ووقف عند مسألة تعدد المصطلحات التي تتناول المفهوم الواحد قائلا :

«وقد نجم عن ذلك تنوع كبير واضطراب شديد جديرين بأن يحولا بين المبتدئين وفهم العلماء وبأن يمنعا العلماء من أن يفهم بعضهم عن بعض »[١٠].

ويبدو أن طبيعة المعطي الذي ينطلق منه البحث اللساني كان من العوامل التي تفسر قلق المصطلح واضطرابه . فالظاهرة اللغوية كانت من أكثر الظواهر درساً في مختلف الثقافات الانسانية . وهذا من شأنه أن يسمح لجانب كبير من المصطلحات القديمة بالتعبير عن المفاهيم الجديدة على صعوبة المعادلة في ذلك وعسرها . فتلك دلالات قد لاتتسع للمدى المفهومي الذي ترمي إليه هذه . وهكذا يأتي المصطلح متأخراً عن محتوى المفهوم أو متقدماً عليه بشكل يجعل العلاقة بينهما غير مستقرة . وهذا يسمح للباحث بالعدول عن هذا المصطلح الى ذاك أو يحمله على أن يضع مصطلحة وضعاً جدياً وينحته نحتاً جديداً « حسب صدف الاكتشافات والإيحاءات »[١١] كما يقول ماروزو مرة اخرى .

ثم إن موقف الثقافة اللغوية اللسانية عصرئذ . من هذه اللسانيات الناشئة ـ وهو موقف مناوىء في جوانب عديدة منه ـ قد يفسر مرونة عدد من العلماء إزاء مسألة المصطلح ، حيث يري عدد منهم ضرورة ان يكون وضع المصطلح اللساني مختلفاً بعض الشيء عن وضع المصطلح في العلوم الصحيحة ليتسم بشيء من المرونة تيسر ذيوع العلم وتيسر قبول الأوساط الثقافية له . يقول ج . فندرياس « على اللسانيين أن لا يسموا معجمهم بتلك الصرامة التي تتخذها العلوم الفيزيائية أو الكيميائية فإن المفردات اللسانية مطاطية elastiques وتنضوي على جانب من التقدير »[١٢] هذا الموقف الغريب لا يبدو منعزلا إذ هو يمثل اتجاهاً رسم بدايات الدرس اللساني الغربي . وهو يفسر هذا التنوع الذي ميز وضع المصطلح اللساني فيه . فالاهتمام اتجه أكثر الى حل الاشكاليات المهمة التي يثيرها البحث حلاً يستجيب الى إرضاء العلم من ناحية والجمهور المثقف من ناحية أخرى . ومن ثم تركز الاهتمام على الفكرة والطرح النظري للقضايا والحلول العلمية والاجرائية التي يمكن ان يتصورها لها الباحث . أما البعد المصطلحي فإنه لم يمثل عند أصحاب هذا الاتجاه محوراً أساسياً .

هذا المنحي في التقدير يذهب إليه لوي هيلمسلاف Louis (1899-1965) Hjelmslry وهو لساني دانماركي متشبع من البنيوية السويسرية وهو يري أن « المصطلح إنما هو مسألة ذوق ولا يمت الى حقائق الأمور بصلة »(١٣) . ومن ثم لم يحتفظ من مصطلحات الاستاذ الذي يقر بأستاذيته (دي سوسير) الا بنزر قليل وذهب الى التجديد في أغلبها والأمثلة عديدة بلغت ستة ومائة نكتفي بالاشارة الى نموذجين منها . يتعلق الأول بالمقابلة التي أقامها فرديناند دي سوسير بين الدال والمدلولSignifiant/ Signifie فقد أصبحت مع هيلمسلاف مقابلة بين عبارة ومضمونrxpression/ contem والملاحظ ان مدلول المقابلة يكاد يكون واحداً ولكن المصطلحات هي التي تغيرت .

أما المقابلة بين Paroleو Langue (وقد تعمدت السكوت عن المقابل العربي) فإنها تصبح عنده مقابلة بينSchema (شكل) من ناحية وNome(سنة) و Usage (استعمال) من ناحية أخرى . يلتقي الطرف الأول من المقابلة مع ما يعنيه دي سوسير بمصطلح Langue.

أما الطرف الثاني من المقابلة فهو أيضاً يقوم على مقابلة بين Usage - Norme فالاول يتعلق باللغة في شكلها المادي كما يحددها الانجاز الاجتماعي في حين أنUsage يتعلق بجملة العادات التقطيعية لمجتمع معين . إن الاطار الذي يتحرك ضمنه هو إطار سوسيرى ولكنه يعتمد الى مزيد التحليل مما حمله على تفكيك المصطلح وتفريعه .

وقد أصبحت بعض الأعمال ظواهر تلفت الانتباه لكثرة ما يبالغ أصحابها في التجديد المصطلحي والأمثله عديدة من ذلك العمل الضخم الذي أصدره جاك دامورات وادوارد بيشون بين سنتي (1927 -1950) حيث بالغا في تسمية المفاهيم المعروفة تسميات جديدة ندر أن عاد اليها الباحثون عدا اشارات قليلة لا تتناسب مع حجم العمل .

وهكذا نجم عن هذا المنحي في التقدير وضع هو إلى الفوضي أقرب منه الى الانتظام العلمي حيث إن الواحد من الباحثين يكاد يستقل بمعجم مصطلحاته . يقول مازوزو : « لايتردد البعض في ان يجددوا إما لتسمية مفاهيم جديدة أو

ليعطوا تحديدا أحسن للمفاهيم المعروفة وهكذا يصل الواحد منهم الى ان يكّون في مجاله معجمه الخاص به »[١٤] .

لقد عرف علم اللسانيات بداية من المنتصف الثاني من هذا القرن تراكما في أطروحاته فتعددت مدارسه وتكاثرت نظرياته واتسم وضع المصطلح فيه « بالتضخم والبابلية » على حد عبارة جورج مسونا والأسباب عديدة .

فالمصطلح لا يستقر أحياناً لأن مضمونه لم يتحدد تحديداً كافياً فتراه يضطرب بين عدة دوال لا يكاد يجد استقراره عند واحد منها . والأمثلة عديدة نكتفي بنماذج منها . من ذلك ان التواصل بين المتكلم والسامع يتم على أساس منظومة لغوية قائمة على نظام من الدوال يحيل على نظام من المدلولات يمكن ضبطها جميعا وتحليلها .

ولكن قد تتوفر السلسلة النطقية على ظواهر نغمية تساهم في التواصل ولكن يصعب تحديدها ضمن وحدات يمكن تحليلها . هذا الوضع اللساني كيف نصطلح عليه اصطلاحا يساعدنا على التمييز بين ما يمكن تحليله وما لا يمكن . هنا اختلط الباحثون . لذلك نجد جملة أسماء تحيل علي مسمى واحد . Marginal - Supra segmental- Peripheral وهذا مصطلح انقليزي نسخته الفرنسية نسخا . والكلمات الثلاث تشير بنفس الدلالة ولكنها سلكت اليها مسالك مختلفة فالأول يشير الى أن هذا المصطلح اللساني من صميم السلسلة ولكنه فوقها . أما الثاني فهو ينبئنا بأنه في هامشها في حين أن الأخير يوميء الى أنه يوجد في محيطها .

ومن ذلك تلك الوحدات التي يسميها ايميل بنفنيست Les indictcurs وهي وحدات إشارية تشمل الضمائر وأسماء الإشارة وظروف الزمان والمكان . هذه الوحدات أطلق عليها رومان ياكبسون مصطلحاً انجليزيا وهو shifters وهو مصطلح ترجمة ياكبسون نفسه بـ Embrayeurs علماً وأن المصطلح الانجليزي نفسه مستعمل في الفرنسية ، التى تجد فيها مصطلحين آخرين هما - doixis و ACtualisateurs أما المصطلح الذي يبدو أنه استقر أكثر فيها فهو مصطلح : Ies. Deictiques ولا شك أن دراسة هذا المعطي اللساني التي انطلقت مع بنفنيست

وتواصلت مع آخرين ممتدة إلى أركيوني[١٥] ساعدت على انضاج مضمونة ومن ثم نضج المصطلح واستقر .

IV. الترجمة عامل من عوامل تعدد المصطلح اللساني

إن جانبا كبيراً من الخلط في المصطلح اللساني كان أثراً من آثار الترجمة . فالمصطلح تكون له دلالة معينة في اللغة التي يوضع فيها . فإذا نقل الى لغة اخري اختلطت تلك الدلالة لأن الأسماء لا تشمل حقولاً دلالية واحدة في سائر اللغات . ولقد كان فردينان دي سوسير على وعي تام بالقضية لما أشار إلى خصوصية المقابلة الي عقدها بينLanjue/Parole (مرة أخرى أصمت عن المقابل العربي متعمداً) منبها إلى أن هذه المفاهيم ليست لها نفس القمية في بقية اللغات التي يعرفها . ففي الألمانية نجد كلمةSprache وهي تشمل في آن معا دلالة المصطلحين الفرنسيين Langue/ Parole أماRede الألمانية أيضاً فهي تناسب تقريباً مصطلح Paroleمع إضافة معني discours في حين أن المصطلح الفرنسي Sermo يشمل المصطلحين الفرنسيين Parole- Langaage وهذا ما جعله يقول : «لا توجد كلمة تناسب مناسبة دقيقة مفاهيم [Langage/Langue/Parole] بالشكل الذي حددناه أعلاه »[١٦] .

وفعلا فلقد ترجمت المقابلة بين Langue/Parole في الألمانية الى Sprache/Rede وفي الانجليزية إلى Languge/Spech وفي السويدية إلى Sprak/tal وفى الاسبانية Lengua/Habla ولكن أيا من أزواج المصطلحات هذه لم يرتق الى عين الدلالة التي يرمي إليها فردينيان دي سوسير ومن ثم فأنها لم تعرف ما عرفه الزوج المصطلحي السوسيري من سيرورة وذبوع . ولعلنا ندرك ان الاختلاف في ترجمة مثل هذه المصطلحات ليس وضعاً خاصاً باللغة العربية وانما هو وضع شامل يستدعي التفكير دون تهويل .

والمهم في رأيي هو إدراك القيمة الدلالية للمصطلح فهذا من شأنه ان يساعدنا على تجاوز الأشكال الذي يمكن أن توقعنا فيه الترجمة فمصطلحLangage تعني عند فردينيان دي سوسير الظاهرة اللغوية باعتبارها مؤسسة بشرية[١٧]

كونية لاتختلف في بعدها المؤسساتي عن سائر المؤسسات التى عرفتها المجتمعات البشرية . أما Langue فهو النظام الذي يتعالي على الافراد هي « جملة القواعد التي تحدد ضمن حالة لغوية معينة استعمال الاصوات والأشكال ووسائل التعبير التركيبية والمعجمية فهي تجريد باعتبارها نظاماً متعالياً وهي ظاهرة اجتماعية بما أنها توفر النمط الذي يحتذيه كل أفراد المجموعة اللغوية الواحدة في افعالهم اللسانية وردود أفعالهم . أما Parole فهي تخص الاستعمال الفردي لهذا النظام المتعالى فهى ظاهرة فردية محسوسة تخرج بالوضع اللغوى من وضع التجريد الى وضع المحسوس ومن وضع القاعدة الى وضع استعمال القاعدة . هذا الضبط يحسن استحضاره عند ترجمة المصطلح إذ من شأنه أن يساعد على سد الثغرة التى قد تنجم عن الترجمة .

ويمكن من تعديل دلالة المفاهيم المترجم إليها بما يمكنها من موازاة الكلمات المترجمة . وهكذا تصبح ترجمة المصطلح بمثابة المواضعة الجديدة التى تطرأ على المصطلح القديم فتدخل به حقلا اصطلاحياً جديداً .

إن عدم الانتباه الى دلالة المصطلح في اللغة المنقول منها من شأنه أن يوقع في أخطاء فادحة مضحكة أحيانا من ذلك تلك النادرة التي يرويها جورج مونا في مقدمة عمله « معجم اللسانيات » معرضاً ببعض من بذل جهداً في التمييز بين Structural - Structurel مع أن الاختلاف الوحيد بينهما مأتاه اختلاف مصدرهما ، فالدلالة واحدة لكن الأول ترجمة من الالمانية والثاني ترجمة من الانجليزية .

إن الترجمة كما تري منفذ كبير الى تعدد المصطلح . انظر مثلا مجال التواصل فإننا نجد في اللغة الفرنسية مصطلحات عديدة تعبر عن الزوج المصطلحي : المتكلم / السامع (الباث / المتقبل)

Locuteur / auditeur

emetteur / recepteur وهو ترجمة عن الانجليزية

encodeur / decodeur

destinateur/ destinaire.

وهذا أيضاً نسخ للزوج الانجليزي destnator/ destinatee

V ـ وضع المصطلح اللساني ـ النقدي في الثقافة العربية

إن وضع المصطلح في ثقافتنا العربية ليس أحسن حالا منه في الثقافة الغربية رغم الجهود المحمودة التي بذلها ويبذلها اعلام التفكير اللغوي فيها . والأمر طبيعي بما أننا نتحرك في تعاملنا مع المعرفة اللسانية فوق أرضية غربية فكان طبيعياً أن لا تكون مصطلحاتنا موحدة بما أن مراجعنا ليست كذلك ومراجعنا يشيع فيها الاختلاف الاصطلاحي أكثر من الاتفاق لاسباب عدة منها ما يقره البحث العلمي ومنها ما يثير قلق العلماء ويحدوهم الى التفكير في بعض الحلول . ولكن أحدا منهم لم يطرح مسألة توحيد المصطلح هذا الطرح الساذج الذي نجده هنا وهناك . ومع وعينا بخصوصية ثقافتنا فإن الدعوة الى توحيد المصطلح تبدو لي قضية زائفة وعلى غاية من السطحية لانها تحجب عنا القضايا الحقيقية التي ينبغي أن نركز فيها اهتمامنا . ثم إن طرح مسألة توحيد المصطلح يصبح خطيراً لانه في بعد من أبعاده حكم على البحث العلمي بالجمود والعلم أنما يجد تربته الخصبة في الاختلاف الخلاق أما الثابت الذي لا يأتيه الباطل فهو خارج عن طريق الانسان .

على أني لا أماري في أن مسألة المصطلح اللساني تقتضي تفكيراً جاداً حتي لا يتحول الأمر إلى فوضى فيعمد الواحد إلى أن يضع مصطلحاته كما اتفق ودون مناسبة أحياناً فتستغلق الافكار وتندرس المقاصد وتغيب المفاهيم . فعوض أن ندعو الى توحيد المصطلح ، حري بنا أن ندعو الى البحث عن منهجية علمية في التعامل معه .

إن العوز اللغوي هو في أصله عوز حضاري يتجاوز إمكانات الافراد والجماعات . فالفكر العربي لم يعش المخاض العلمي الذي أثمر في كل الحقول العلمية الصحيحة منها والانسانية عن أشياء ونظريات ونتائج نضطر الى الاخذ بها أو القول بها لكننا نصطدم دائماً بمشكل التسمية وهو أمر ليس سهلاً خاصة في المجال النظري الذي لا يسفر عن أشياء مادية محسوسة وإنما يسفر عن أفكار ومفاهيم ومجردات . والمعاناة العلمية تصحبها دوما معاناة لغوية يكون فيها المصطلح توأم المفاهيم يولدان معا في لحظة واحدة . والفكر عندنا لم يعش في أغلب الاحيان هذه المعاناة وهكذا فإن الاطار الحضاري العام لا ييسر مهمة الذين يحاولون التعريف

بهذه العلوم وترجمة مصطلحاتها . وكلما كان الفرد مبادراً إلى الأمر رائداً واجهته الصعوبات أكثر ، صعوبات تترك آثارها في عمله مهما اجتهد .

وإذا ما تجاوزنا هذا الإطار الثقافي العام الذي يطول الجميع نجد أسباباً أخرى تخل بجهودنا وتقعد في بعض الاحيان بمقاصدنا .

فالبعض منا يعمد الى ترجمة مصطلحات دون أن يسلم بسائر دلالاتها في البيئة العلمية التي نشأت فيها فتأتي الترجمة إما قلقة نابية أو قميئة قاصرة لاتؤدي دلالة المصطلح دلالة شافية . والأمثلة عديدة لا تعوزنا .

ان الجهد العلمي من شأنه أن يكسب المصطلحات المعروفة دلالات خاصة هي أثر من آثار ذاك الجهد فتختلف دلالة المصطلح باختلاف المدرسة التي ينتسب اليها . إن الوحدة الدنيا غير الدالة (الصوتم ـ الفونيم) لا يفهما الدارسون فهما واحداً . فمن دي كورتناي DeCourtenay الذي اسرف في إضفاء البعد النفسي عليها الى دانيال جونس الذي بالغ في ابراز بعدها الصوتي . جاءت دراسات عديدة متوسطة هذين الطرفين فبلومفيلد يلحُّ على صلة الصوتم بالنظام اللغوي ومن ثم فهو يركز على صفة التجريد فيه[١٨] أما تروبتسكوي Troubetskoy فهو يعرفه بأنه « أصغر وحدة في وسعها أن تقابل على مستوى الدال بين دليلين لغويين » مثل : صاغ / ساغ فالصاد صوتم يختلف عن السين لان التفخيم فيها أكسب الكلمة معني يختلف عن معني الكلمة الثانية . فثمة عنده الحاح على الناحية المعنوية الوظائفية . وله في الصوتم آراء كثيرة طرحها في كتابه « مباديء الفونولجيا » الذي صدر سنة ١٩٣٩ . وهكذا ، فإن المصطلح الواحد تختلف دلالاته باختلاف المدارس والأعلام . ومن ثم ساغت هذه النصيحة التى يقدمها أندري مارتيني : « علينا أن نجتهد في أن لا نستعمل مصطلحات خاصة بهذه المدرسة أو تلك دون أن نحددها ودون تبرير استعمالنا لها[١٩] . وعلى هذا الأساس تري بعض المصطلحات وقد اتخذت عند بعض الباحثين أرقاماً تناسب دلالاتها المختلفة ضمن سائر المدارس . ففنولوجيا عند كلود حجاج هي فنولجيا . . الى فنولوجيا ٧ . والارقام من ١ الى ٧ تحيل الى مدارس مختلفة ومن ثم إلى دلالات مختلفة . فجدير بالمترجم أن ينسب ترجمته إلى المدرسة أو المدارس التي ينتمي اليها المصطلح فإذا تكاثرت فإنه يكتفي بأهمها . كذلك فإن

تذكيراً موجزاً بتعريف المصطلح عند هذه المدرسة أو تلك من شأنه أن يجعل الترجمة أكثر إفادة .

وقد يترجم البعض مصطلحات كانت قد ترجمت دون مراجعة الترجمات السابقة ومحاولة الاستفادة منها ، ومن ثم فهو لا يبرز عدو لا ما عنها ولا يبين فروقاً ما بين هذه الترجمة وتلك فتتكاثر الترجمات دون سبب واضح . وإن كان السبب في الحقيقية واضحاً فنحن لا يقرأ بعضنا لبعض ولا يقدر بعضنا جهود غيره من الدارسين حق قدرها . هكذا نري ان المصطلح الواحد قد ترجم عديد الترجمات دون أن يبين اللاحق الأسباب الموضوعية التي اقتضت منه التخلي عن الترجمة السابقة النقص في الأولى ولأن الثانية أكثر ضبطاً ؟ أم لانه انطلق من مدرسة غير التي انطلق منها الأول ؟ أم لسبب آخر لا ضير على كل حال في ان يبديه .

وقد يبرر البعض عزوفهم عن هذا المصطلح أو ذاك بأنه غير عربي صميم . فيضرب عنه صفحا بدعوى أنه بدعة لغوية وليت شعري أي المصطلحات اللسانية ليس بدعة فإن لم يكن في لغته ففي معناه . فعندما ننقل الكلمة القديمة من دلالاتها القديمة التي تقرها لها المعاجم الى دلالة لسانية حادثة بالمعنى الذي تقره هذه المدرسة أو تلك نكون قد حولنا دلالتها أو علي الاقل أكسبناها دلالة جديدة لم تكن تحتملها قبل ذلك ـ فالدخيل فيها وان لم يكن لغويا فهو معنوي . والعربية منذ القديم لا ترى غضاضة في قبول الوافد اللغوي تمر به أو تأخذه في لغته والناظر في النصوص العربية القديمة يدرك ذلك بكل يسر .

وبعد فإن القضية ليست بالسوداوية التي تصورها بعض الاقلام فالوضع الاصطلاحي يعاني بعض الفوضى ولكنه كما لاحظنا وضع عام يعاني منه العلم في كل الثقافات وهو يقتضي عندنا كما يقتضي عندهم اجتهاداً في البحث عن أرضية منهجية توفر أقصى أسباب التناسق . وإن أول خطوة في طريق هذه المنهجية هي الحرص على ان نوفي البحث حقه فلا نقصر في الالمام بالمعطيات والتعمق في درسها فإننا ـ إن فعلنا ـ نكون قد خطونا خطوة نحو الاتفاق . ذلك أن الاتفاق حول مضمون العلم ومادته لا يمكن إلا أن يكون سابقا للاتفاق حول المصطلح . وإنه لمن غير المعقول أن ننشد انسجاما في مواقفنا من المصطلح ونحن لم نلم بالمادة العلمية التي تكتنفه .

الهوامش

(١) j. Cohen: Structure du Langage Poetique. Flammaron. Paris, 1988.

(٢) اقرا حكمه الغريب ص ١٤٠ : « ... ويكفي ان نشير الى انها تلقي بظلها على حركة ترجمة المصطلح الادبي والنقدي وتضيف الى الوضع البائس للنقد العربي الحديث مما يدفعه درجات بعد دركات الى هاويته التي يتردي فيها » .

(٣) Gestaltheorie : كلمة المانية تعني نظرية الشكل .

Gestalt : بنية ، شكل ، اتجاه في علم النفس غلب على بدايات هذا القرن وعرف شعبية واسعة . انظر فصل Encyclopcdia universalis. Cestaltisme.

على انه يحسن التنبيه الى ان دي سوسير يلح على نفي البعد النفسي عن مباشرته اللسانية .

(٤) C. Levi- Strauss: Anthropologie structural. paris. plon, 1958.

(٥) R. Barthes : Mythologirs. ed. du Seuil,Paris.

(٦) Michel Foucault : Les mots et Les Choses. Gallimard, Paris, 1967.

(٧) انظر مقدمة : Ceorges Mounin : Dictionnaire dee La Linguistique. P.U.F, Paris, 1974.

(٨) Antoine Meillet : Bull. de La Soc. de Ling. N. 87, p.44.

(٩) j. Marouzeau : Lexique de la terminologie linguistique.paris, 1943

(١٠) نفس المرجع ، ص ٩ .

(١١) نفس المرجع ، ص ٥ .

(١٢) انظر : j. Vendryes : Revue Celtique.1928, p.374.

(١٣) Louis Hjelmslev: Principes de Grammire. p. 57.

(١٤) ماروزو : المرجع المذكور اعلاه ، ص ٩ .

(١٥) جورج مونا : المرجع المذكور اعلاه ، صXI.

(١٦) انظر : Catherine Kerbret- Orechionie: L,Enonciation. Armand Colin, Paris, 1980

الفصل الثاني خاصة من ص ٣٤ الى ١٢٠ .

(١٧) يحسن التنبيه في هذا السياق الى ان فردينان دي سوسير لم يجزم بهذا الراي . لكن بعض تلاميذه يلح على هذا البعد المؤسساتي في الكلام . انظر خاصة : Andre Martinet : ELements de Linguistique Generale. Armand Colin, 1980

(١٨) H.A. Gleason : Introduction a La Linguique. ed. Larousse. من ص : ٢٠٧ الى ص : ٢١٥ .

(١٩) Andrc Martinet: Economie des changements phonetiques. Berme. A. Francke. 20 ed. 1964, p. 12.